المحاضرة الاولى

مدخل

علم الاجتماع القروي والعلوم الاجتماعية

إن القراءة المتمعنة في تاريخ السوسيولوجيا تكشف أنه بعد مرحلة التأسيس مع الرواد الكبار كونت، ماركس، دوركايم، فيبر، التي كان فيها هاجس صياغة النظريات والمفاهيم الكبرى هاجسا مهيمنا، فإن الاهتمام بالقرية وبالمجتمع القروي كان اهتماما مهيمنا لاعتبارات متعددة نلخصها في:

- احتضان العالم القروي لساكنة قدرت ديمغرافيا في بدايات القرن العشرين بأكثر من 70% من مجموع سكان العالم.
- اعتبار المجال القروي موضوع تحديث زراعي أو موضوع وحقل ثورة زراعية حسب الخطابات ذات المرجعيات الليبرالية أو الاشتراكية.
- كون أن القرية كانت دائما حقل الدراسات السوسيولوجية والأنثروبولوجية سواء من خلال نظمها الاجتماعية متمثلة في القبيلة، العشيرة، الدوار، أو في الممارسات الاجتماعية القائمة من مقدس، متمثل في السحر، الأضرحة، أو طقوس الزواج، الدفن،...الخ، أو طقوس الزعامة السياسية وإعلان الحروب أو وقفها.

يشتمل علم الاجتماع القروي على تراث متنوع سواء في السوسيولوجيا الأنجلوساكسونية أو السوسيولوجيا الفرنسية، هذا فضلا عما تضمنته مختلف الإنتاجات الأنتروبولوجية من أنماط تحليلية ومقاربات تصنيفية لمختلف التشكيلات الاجتماعية القروية. سنعمد في هذا المدخل إلى تقديم المستويات المعرفية الكبرى ذات العلاقة المباشرة بعلم الاجتماع القروي وهي:

I - الأنثروبولوجيا. II - نظريات النمو و التخلف. III - علم الاجتماع القروي بالمغرب.

I - الأنثروبولوجيا

كان لهذا العلم الاجتماعي المتعدد المجالات والمتنوع التقنيات والمقاربات والمناهج دور في تفكيك البنيات الاجتماعية بالقرية، وفي تحليل الممارسات الثقافية، الاقتصادية والسياسية كممارسات اجتماعية. ليس بإمكاننا حصر الإنتاج الأنثربولوجي أو إبراز قيمة مساهمته في تلقيح السوسيولوجيا القروية بنتائج علمية وميدانية خصبة لكن وبصيغة مركبة، يمكن تحديد المستويات التالية الخاصة بالعلاقة القائمة بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع القروي، من خلال النظريات الكبرى الآتي ذكرها:

1- الأنثربولوجيا الوظيفية

ساهمت المدرسة الوظيفية في الأنثروبولوجيا كمدرسة أنجلوساكسونية في صياغة مقاربات متنوعة للبنيات الاجتماعية لمجتمعات قبلية بإفريقيا، أمريكا، واستراليا فإذا كان النصف الثاني من القرن التاسع عشر هو قرن التأسيس الموضوعاتي الأنثروبولوجيا مع الأعلام الأولى ك: اوفن، ماين، تايلور، ليبوك، مورغان، فإن النصف الأول من القرن العشرين كان قرن وضع شروط منهجية جديدة للأنثروبولوجيا بمحاولة الابتعاد عن الثقافة الغربية الصناعية ومعرفة الواقع المعاش للمجتمعات المدروسة خاصة مع مالينوفسكي

Malinowski، راد كليف براون Rdcliffe Brown، هرسكوفيتز Herscowritz، لنتون Linton، كاردينر Cardiner.

ينتمي الأولان للمدرسة الوظيفية البريطانية. أما الثلاثة الأواخر فينتمون للمدرسة الثقافية الأمريكية التي لعبت دورا في نقد النزعة الاستعمارية والاهتمام بالثقافات الأصلية لمجتمعات << اللاكتابة >> سواء مجتمعات إفريقية أو أسترالية أو مجتمعات الهنود الحمر بأمريكا الشمالية.

2- النظرية الإنقسامية

تستند هذه النظرية على مقاربة تحليلية تجزيئية Segmentarismé تعتبر أن البنية الاجتماعية تشتغل وفق آليات الانشطار، الانقسام والتجزئ للبنية الاجتماعية إلى أقسام لتنقسم هذه بدورها إلى أقسام، وداخل كل مستوى هناك اتحاد أو تحالف دفاعي مواجه لتحالف خارجي (أنا ضد أخي/الإخوة ضد أبناء العم/العشيرة(أ) ضد العشيرة(ب)/مجموع عشائر القبيلة(أ)ضد عشائر القبيلة(ب)/القبيلتان(أ)و(ب)تشكلان اتحادا قبليا في مواجهة اتحاد قبلي آخر ...). إن سلسلة الانشطارات هاته هي التي دفعت بالأنثروبولوجيين الأفريقانيين Les africanistes، منهم فورتس Fortes، ميدلتون Middleton، تيت Tait، سوتال Southal إلى تسمية المجتمعات المدروسة ب<< المجتمعات الانقسامية >>.

بالنسبة للمغرب يعتبر إرنست جيلنر E.Gellner في دراسته <<صلحاء الأطلس>> أهم الأنثروبولوجيين الذين فككوا التنظيم الاجتماعي القبلي بالمغرب، حيث لجأ إلى التحليل الانقسامي مستفيدا من تحليل إيفانس بريتشارد E.Pritchard لقبائل << النوبير >> Nuer بإفريقيا الشرقية. منح جيلنر للصلحاء دورا مركزيا في تأدية وظائف اجتماعية وسياسية مهمة داخل بنية قبلية شبيهة بشجرة لها فروع، حيث ينتخب الرؤساء سنويا وبنظام تناوبي. أما الصلحاء فهم الذين يضمنون الحصانة الأخلاقية حتى تتمكن الاتحادات القبلية من الاجتماع وتنظيم الانتخاب. لقد تعرضت نظرية جيلنر لانتقاد علمي مؤسس من طرف الأنثروبولوجي المغربي عبد الله حمودي، حيث اعتبر الانتخاب هو تعيين، كما أن الاجماع تم خرقه أكثر من مرة، إضافة إلى أن الحنصاليين تأرجحوا بين وضعية المسالمة والصلح، وبين وضعية التمرد والنشاط العسكري في العلاقة بسلطة المخزن المركزية.

3- الأنثرويولوجيا بالمغرب

إذا كانت الأثنولوجيا والسوسيولوجيا الكولونياليتين(الإستعماريتين) قد ارتبطتا اسميا بفرنسا، خاصة في المرحلة الاستعمارية، فإن المرحلة ما بعد الاستعمارية قد ارتبطت اسميا بالأنثربولوجيا الأنجلوساكسونية، المرتبطة بصفة أساسية بباحثين أمريكيين في عقدي

الستينات والسبعينات دراسات شملت حقولا وأنساق اجتماعية مختلفة خاصة بالمجتمع المغربي، ولضرورة منهجية وبدافع إجرائي يوجهه هاجس التلخيص التركيبي، نشير إلى أهم الدراسات الأنجلوساكسونية مع موضعتها ضمن مجال من المجالات التالية:

- **<u>الدين، المقدس والزوايا</u>:** من أهم الدراسات، نشير إلى دراسة جيلنر Gellner <<صلحاء الأطلس>> حول زاوية أحنصال، وبحث إدوارد وسترماك E.Westermack <<المعتقدات الطقوسية بالمغرب>> (منطقة طنجة)، ودراسة ديل إيكلمان Dale Eickelman <<الإسلام في المغرب>> وهي تتعلق بالزاوية الشرقاوية بأبي الجعد.

- **<u>الأرياف والقبائل</u>:** نشير هنا من جديد إلى دراسة جيلنر المذكورة سابقا وأيضا دراسة دافيد هارت D.Hart لقبيلة بني ورياغل بالريف وآيت عطا بالجنوب، وأيضا دراسة دافيد سيدون D.Seddon لقبيلة أولاد ستوت بزايو. ووليام شورجر W.Shorger حول منطقة مديونة بالشاوية، ودراسة هرمان فون فريش H.Von Fresh حول التحديث الزراعي بمنطقة ابن احمد.

- **<u>الحكم،الملكية، والزعامات المحلية</u>:** لعل أهم دراسة أنجلوساكسونية معروفة هي <<أمير المؤمنين>> لجون واطربوري J.Waterbury، والتي درست علاقة الملكية بالنخب السياسية لسنوات ما بعد الاستقلال، وأيضا كتاب <<الإسلام تحت المجهر>> لكليفورد جيرتز C.Geertz، ودراسة بول رابينوف P.Rabinow حول الزعامات السياسية المحلية بآيت يوسي بصفرو.

II ـ نظريات النمو و التخلف

كان للنظريات الاقتصادية والسوسيولوجية المرتبطة بالنمو والتخلف دور أساسي في منح قيمة أساسية للعالم القروي، وتحويل الانتباه ـ ولو لفترة محدودة ما بعد الحرب الكونية الثانية ـ نحو الأرياف والقرى لتأخذ نصيبها من <<التقدم>> <<التنمية>> و<<التحديث>> كما هو شأن الحواضر الكبرى بالبلدان الصناعية. لذلك كان للتراكم النظري الكبير الخاص ب<<سوسيولوجيا>> وأيضا <<اقتصاد>> <<النمو والتخلف>> الدور الكبير في إدماج العالم القروي ضمن اهتمام الباحثين السوسيولوجيين والاقتصاديين، وهنا يمكننا أن نصنف هذه النظريات المرتبطة بمسألة النمو والتخلف بمدارس ثلاثة رئيسية:

1ـ المدرسة الماركسية: وهي مدرسة منذ كارل ماركس، وبعده فلادمير لينين، أدمجت الفلاحين ضمن الطبقة العمالية، واصفة إياهم ب <<البروليتاريا الزراعية>> بل تم تقييم دور الفلاحين، كدور معضد للطبقة العمالية بالمصانع والحواضر، دور الفلاحين دور ملحق و<<مساعد>>، ضمن نظرية الثورة الاشتراكية، وكل أقطاب الماركسية من ماركس، لينين، غرامشي، ماو، أطروا دور الفلاحين ضمن يوتوبيا سياسية ترتبط ب <<ديكتاتورية البروليتاريا>> كحلم ثوري لم يتحقق.

2ـ المدرسة الليبرالية: تحضر مفاهيم، التراكم، الإنتاج، فائض الإنتاج، التبادل، الاستهلاك، الربح، النمو، حضورا قويا في الفكر الليبرالي، خاصة في شقه الاقتصادي.

يتمحور الخطاب الاقتصادي الليبرالي حول <<نظرية النمو>>، أي البحث على طرق تحقيق وثائر سريعة للنمو الاقتصادي. إن هذا الاهتمام هو السائد لدى الاقتصاديين الليبراليين منذ ريكاردو في القرن الثامن عشر، وصولا إلى روستوف في القرن العشرين. ارتباط بالمجال القروي، اعتبرت النظرية الليبرالية أن <<التحديث الزراعي>> هو القاعدة الأساسية لتحقيق نمو اقتصادي بالمجال القروي، على الفلاحة أن تتوجه نحو التسويق والتصدير، وهو ما لن يتأتى إلا بعصرنة آليات وأدوات الإنتاج الزراعي.

3ـ مدرسة التبعية

يندرج ضمن هذه المدرسة التي تشكلت في عقدي الستينات والسبعينات مفكرون سوسيولوجيون، علماء اقتصاد وسياسة، معظمهم ينتمي لقارات أمريكا الجنوبية، إفريقيا، وآسيا، وإن كانت فئة قليلة تنتمي لأوربا والولايات المتحدة. يجمع مفكرو هذه المدرسة على تقسيم اقتصاد العالم وبلدانه إلى مجموعتين، بلدان << المركز >> التي تضم أمريكا الشمالية، أوربا، واليابان، وبلدان << المحيط >> التي تضم بلدان القارات الثلاثة، والعلاقة بين المجموعتين هي علاقة لا تكافؤ، في الإنتاج، التبادل، والتوزيع، حيث أن الجنوب ينتج ويصدر بتكلفة رخيصة، ويتقاضى مقابل ذلك مواد تقنية بسيطة بتكلفة باهظة. ويشكل العالم القروي ضمن مجال << المحيط >> << محيط المحيط >> أو << هامش الهامش >> لأنه بدوره يكون هو المهيمن عليه Dominé في علاقته بالعالم الحضري حيث تتمركز

رؤوس الأموال والثروات الاقتصادية. من أهم رموز مدرسة التبعية نذكر سمير أمين S.Amin، Stavenhagen، Frank، Gordoso.

III - علم الاجتماع القروي بالمغرب

يعتبر علم الاجتماع القروي بالمغرب علما في طور التأسيس لم يكتمل نموه بعد، شأنه في ذلك شأن علم الاجتماع بالمغرب بشكل شمولي. لذا فإن التمرحل الذي ميز الثاني ينطبق على الأول باعتباره فرعا منه، وإن كان يشكل قسمه الرئيسي. نميز في تاريخ تشكل علم الاجتماع القروي بالمغرب بين مرحلتين: 1. مرحلة كولونيالية. 2. مرحلة وطنية

1- المرحلة الكولونيالية

عادة ما يؤرخ لظهور السوسيولوجيا بالمغرب بحدث تأسيس <<البعثة العلمية بالمغرب>> La Mission scientifique au maroc (1903-1904)، رغم أن الحدث كان مسبوقا بظهور أبحاث إثنوغرافية متفرقة همت ظواهر السحر، القبيلة، الزوايا بمناطق مختلفة من

المغرب تمهيدا للتدخل الاستعماري. وقد تكاثرت الدراسات الاثنوغرافية والمونوغرافيات المعرفة بقرى وأرياف بالمغرب بعد التثبيت الرسمي والدولي الاستعماري بالمغرب (1912)، حيث تميز ميشو بلير بدراسته حول << الطرق الدينية بالمغرب>> (1927)، وإدموند دوتيه Doutté في كتابه << Entribu >> (1914)، ثم روبير مونطاني R.Montagne في أطروحته التحليلية المتميزة << البربر والمخزن >> (1930)، وبعده جورج دراك G.Drague في مؤلفه حول الزوايا << Esquisse d'histoire religieuse du maroc >> (1951)، وبعدهم جاك بيرك المبتعد عن النزعة الكولونيالية والملتصق أكثر بالمجتمع القبلي لسكساوة بالأطلس الكبير في أطروحته الشهيرة الصادرة سنة 1955 << البنيات الاجتماعية للأطلس الكبير >>، إنها أمثلة محدودة وقليلة لأهم ما خلفته السوسيولوجيا الكولونيالية حول العالم القروي بالمغرب.

2- المرحلة الوطنية

بعد العقد الأول للإستقلال السياسي للمغرب، وجد الجيل الأول من الباحثين الاجتماعيين المغاربة نفسه أمام تحد، يرتبط بالبعد المزدوج للسوسيولوجيا الكولونيالية:

- **بعد معرفي** يتمثل في القيمة الوصفية وأحيانا التحليلية للدراسات الإثنوغرافية و السوسيولوجية لباحثين كولونياليين همت ظواهر اجتماعية متعددة خاصة القبيلة، الدين، الزعامات المحلية.

- **بعد إيديولوجي** إرتبط بالتصورات القدحية والمضامين والأحكام السلبية التي شملتها الدراسات الكولونيالية حول المغرب والمغاربة.

كان ضروريا للتمييز بين هذين البعدين الخاصين بالسوسيولوجيا الكولونيالية التي كانت وبامتياز سوسيولوجيا قروية << تصفية السوسيولوجيا من نزعتها الكولونيالية >> Décoloniser la Sociologie، كما دعا إلى ذلك المفكر المغربي عبد الكبير الخطيبي.

أمام هذا الوعي النظري بالبعد المزدوج لتلك السوسيولوجيا، بدأت تتبلور معالم سوسيولوجيا وطنية، كما تبلورت الخطوط الأولى لعلم اجتماع قروي مغربي - بحكم أن الغلبة الديمغرافية كانت للبوادي حتى إحصاء 1994 - مثله بصفة عميقة بول باسكون P.Pason لكن حضر إلى جانبه باحثون آخرون اهتموا بالمجال القروي نذكر أهمهم : محمد جسوس، المكي بن الطاهر، عبد الجليل حليم، رحمة بورقية، المختار الهراس.

تنوعت مساهمات هؤلاء في نحت صورة واضحة لدراسات سوسيولوجية قروية، وإن لم يكن علم اجتماع قروي مغربي مستقل وقائم بذاته، إلا أن أهم باحث في السوسيولوجيا القروية المغربية يبقى هو الراحل بول باسكون (1932-1985) الذي تمكن من خلال عمله الميداني

المباشر وتأطيره العلمي للطلبة المهندسين بمعهد البحث الزراعي، وتجديده في الحقل المفاهيمي من منح السوسيولوجيا المغربية نفسا قويا.

بول باسكون وعلم الاجتماع القروي بالمغرب

تعددت التدخلات العلمية، النظرية والميدانية لبول باسكون في مناطق مختلفة من المغرب منذ بداية الستينات، سواء بمساهمته في المخطط الخماسي 1960- 1964 أو دوره في تأسيس المكتب الوطني للري، أو دراساته لقرى منجمية لفائدة << المكتب الشريف للفوسفاط >>، أو دعمه لفريق متعددة الاختصاصات EIRESH، هذا فضلا عن أثره الواضح في تأسيس المكتب الوطني للري بالحوز سنة 1964، ليصبح فيما بعد مديرا جهويا للمكتب الجهوي للاستثمار الفلاحي بالحوز. وقد مكنته هذه التجربة المهنية الأخيرة - مع مزاوجتها بالتدريس بمعهد الزراعة والبيطرة بالرباط - من إنجاز أطروحته الجامعية القيمة << حوز مراكش >> Le Haouz de Marrakech سنة 1975، والتي ستنشر في جزأين سنة 1977.

من أهم القضايا والخلاصات المثيرة في كتابات باسكون، وخاصة أطروحته الجامعية، هو نعته للمجتمع المغربي ب << المجتمع المركب >> Société composite، كمجتمع هو تركيب متداخل لأنماط إنتاج قبل رأسمالية وأخرى رأسمالية، فالإنسان المغربي يعيش كما يفكر، يستهلك ويتعايش مع ما هو إقطاعي، رأسمالي، واشتراكي في نفس اليوم واللحظة،

وهو ما ينطبق على السلوكات داخل المؤسسات، في الشارع، وداخل الأسرة. لقد مكنت الملاحظات التي جمعها باسكون حول المجتمع القروي بحوز مراكش من صياغة نظرية سوسيولوجية حول << المجتمع المركب >> قابلة للتعميم على مستوى المجتمع المغربي.

بيبليوغرافيا مختارة لأهم المراجع المتوفرة بمكتبة كلية الآداب (ظهر المهراز)

- رحمة بورقية، الأرياف المغربية في ظل التحولات الكبرى ج/3/15403

- محمد علي قطان، دراسة المجتمع في البادية والريف ج/3/9662 أو ج/3/7291

- محمد الجوهري وعلياء شكري، علم الاجتماع الريفي والحضري ج/3/9713

- علاء الدين جاسم البياتي، البناء الاجتماع والتغير في المجتمع الريفي،/ الرشيدية، دراسة أنثروبولوجية اجتماعية ج/3/8571

- Guy Hunter, La Modernisation des sociétés rurales, 300 - 1899/A.

- Paul Bois, Paysans de l’ouest, 300 - 2976/A.

- Marcel Vigreux, La Crise de monde rural, 950 - 3267/A.

- Placide Rambaud, Sociologie rural, 300 - 8115/AB .

- Mekki Bentahar, Villes et compagnes au Maroc, 300 - 9869/A.

- Catherine . Coquery, Vitro vitch, Société paysannes du tiers . monde, 950 - 6907/B.

- Henri Deroches, Village en développement, 300 - 4301/B.

- Collectif, Villes et sociétés au Maghreb, C.N.R.S ,300 - 2344/B.

بيبليوغرافيا مختصرة ومركزة

- ابن منظور، لسان العرب، المجلد الثاني، دار صادر، بيروت.

- محمد عبد الغني حسن، الفلاح في الأدب العربي، دار القلم، القاهرة، 1965.

- بول بايروك، مأزق العالم الثالث، دار الحقيقة، بيروت،1973.

- كارل ماركس، الرأسمال، دار الفرابي، بيروت.

- لينين، تطور الرأسمالية في روسيا، دار التقدم، موسكو.

- محمد سلام شكري، هامشية المسألة الفلاحية، مجلة أمل، عدد 22 - 2001/23.

- إريك وولف، الحروب الفلاحية في القرن العشرين، ترجمة أكرم الرافعي، دار الحقيقة، بيروت،1977.

- Karl Marx, Le Capital, Livre 1, Ed sociales, paris,1977.

- Lénine, La question agraine en Russie a La fin du 19 siècle, Ed. du Progrès.

- W.W.Rostow, Les étapes de la croissance économique, Ed, du seuil, paris 1963.

- Gramsci, Gramsci dans le texte, Ed, sociales, Paris,1977.

- Charles Bettelheim, Questions sur la chine après la mort de Mao Tsé Toung, Ed, Maspéro, paris, 1978.

المحاضرة الثانية

الفــلاح مهمشــا وتابعــا

يتحدد الإطار النظري للدراسة ضمن الحقل المعرفي الخاص بعلم الاجتماع القروي كعلم ينقسم بدوره إلى حقول مختلفة تهتم بقضايا وموضوعات اجتماعية تهم المجتمع القروي يعاد تأسيسها في موضوعات سوسيولوجية منها: الصراعات والنزاعات الاجتماعية، النخب القروية، المقدس في المجتمع القروي، الإصلاح الزراعي...الخ. الدراسة تتجه بشكل خاص صوب المسألة الفلاحية La question paysanne من خلال الاهتمام بالفلاح ليس من منطلق نظري محض يستثمر المسألة الفلاحية في رهانات إيديولوجية، بل من منطلق سوسيولوجي يهدف إلى تحليل السياق الاجتماعي لتطور المجتمع القروي الفلاحي. تنطلق الدراسة من إعادة الاعتبار Revalorisation للمسألة الفلاحية، وتأسيس مقاربة سوسيولوجية فهمية متعددة الأدوات المفاهيمية والتقنيات المنهجية لمعرفة أكثر بواقع الفلاحين دون أحكام مسبقة قد تعلن نفسها أحكاما واقعية وموضوعية لأن المهم في البحث السوسيولوجي ليس هو استبعاد الإيديولوجيا بل التحديد الواعي والمعقلن للعلاقة القائمة بينها وبين العلم، فالإيديولوجيا ليست بنت العقل، وانتشارها لا يكون عن طريق الإقناع، بل عن طريق التعاطف. إنها تعبر دائما عن الهوى، الرغبة والمصلحة، وهي توظف كل الحقائق العلمية والمعتقدات الدينية والرموز الأسطورية لإقناع الآخرين[1]، لكنها لا تشتغل بعيدة عنه، فتحديد الإيديولوجيا لا يكون إلا بمقارنتها بالعلم الذي يحاول من خلال منطقه الاستدلالي عن الخطاب الإيديولوجي وإن كان يحمله باطنا وينتهي إلى تطبيقه في الممارسة الاجتماعية ما دام كل علم يرتبط بتحوير إيديولوجي لنتائجه لأنه « بجانب الإقصاء المتبادل بين العلم والإيديولوجيا فإن كلا منهما يساعد على تحديد الآخر وكأن تعريف العلم ذاته لا يتحدد إلا بتحديد ما هو إيديولوجي والعكس أيضا صحيح: العلم هو كل ما ليس إيديولوجيا، والإيديولوجيا هي كل ما ليس علميا »[2].

يتأسس الإطار النظري لدراستنا للمجتمع القروي الفلاحي على التفكير في المسألة الفلاحية ومحاولة تجاوز الخطابات المقاربة لهذه المسألة والتي حددت الفلاح بمرجعية

[1] – محمد سبيلا، الإيديولوجيا، نحو نظرة تكاملية. المركز الثقافي العربي. بيروت. الدار البيضاء. 1992، ص ص 121–122.

[2] – نفس المرجع، ص 198.

سلبية. فما هي أهم الأحكام والتصورات والقيم التي حملتها الخطابات التي تناولت الفلاح سواء في الثقافة العربية – الإسلامية أو في الثقافة الغربية؟

1- صورة الفلاح في الثقافة العربية – الإسلامية

لفظ الفلاح مصدره الفلح، وفلحت الأرض «شققتها للزراعة. وفلح الأرض للزراعة، يفلحها فلحا، إذا شقها للحرث والفلاح: الأكار، وإنما قيل له فلاح لأنه يفلح الأرض أي يشقها وحرفته الفلاحة، والفلاحة بالكسر: الحراثة، وفي حديث عمر: اتقوا الله في الفلاحين، يعني الزراعين الذين يفلحون الأرض أي يشقونها»[3]. تخفي هذه الدلالة الأولى لمفهوم الفلاح في اللسان العربي دلالة ثانية تحمل تصورا قدحيا للفلاح، فإذا كان عمر ينصح «باتقاء الله في الفلاحين» فمرد ذلك وجود ظلم اجتماعي لاحق بهم إذ يصنفون في مرتبة دنيا. وإذا كان الفلاح في نفس المصدر [لسان العرب لابن منظور] يعني «الفوز بالجنة والنعيم» فإن الفلاح [بالتشديد على اللام] لا يفوز دائما بنعيم الموسم الفلاحي، بل قد يلحقه الكساد خاصة في مواسم الجفاف. إن الحكم القدحي على الفلاحين يتحول إلى نصح بالحذر منهم لأنهم مصدر مكر « فلح به تفليحا: مكر وقال غير الحق» والتفليح هو «المكر والاستهزاء»[4]. إن الانتقال من الدلالة اللغوية الأولى المرتبطة بالفلاح كماكر ومتحايل وغير قائل للحق يكشف عن احتضان الثقافة العربية لحكم سلبي لمهنة الفلاحة وفئة الفلاحين وتصنيفهم في أسفل مراتب المجتمع، بل نجد ندرة في استعمال لفظة «فلاحة» في الكتب التراثية، فرغم قدمها في القاموس العربي، فهي كانت تعوض بألفاظ «الأكرة»، «أهل القرى» و «أهل الأرياف»، كما أن لفظة «فلاح» ولفظة «فلاحون» لم تظهرا إلا في القرن السابع الهجري(5)، أي بعد سبعة قرون على تأسيس الثقافة الإسلامية على مستوى النص القرآني، والحديث النبوي، وتبلور مصادر فقهية للشروحات والاجتهادات انطلاقا من النص الديني الأول قرآنا وحديثا نبويا.

---

[3] – ابن منظور. لسان العرب. المجلد الثاني. دار صادر. بيروت. ص 548.

[4] – نفس المرجع، ص 549.

[5] – محمد عبد الغني حسن، الفلاح في الأدب العربي. دار القاهرة. 1965 ص 13.

أما ابن خلدون فيقول في المقدمة «إن الفلاحة من معاش المستضعفين وأهل العافية من البدو، ولذلك لا تجد ينتحله أحد من أهل الحضر في الغالب، ولا من المترفين، ويختص منتحله بالمذلة». قال (ص)، وقد رأى السك ببعض دور الأنصار «ما دخلت هذه دار قوم إلا دخله الذل»، وحمله البخاري على الاستكثار منه وترجم عليه: «باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع أو تجاوز الحد الذي أمر به». والسبب فيه والله أعلم ما يتبعها من المغرم المفضى إلى التحكم واليد العالية، فيكون الغارم ذليلا بائسا بما تتناوله أيدي القهر والاستطالة. قال(ص): لا تقوم الساعة حتى تعود الزكاة مغرما»، إشارة إلى الملك القاهر العضوض القاهر للناس الذي معه التسلط والجور ونسيان حقوق الله تعالى في المتمولات واعتبار الحقوق كلها مغرما للملوك والدول». [6]

تتضمن «المقدمة»، كأهم مرجع من المراجع التاريخية العربية، نظرة تحقيرية للفلاح لأن الفلاحة مهنة ذل ولا يختص بها أهل المدينة والمترفين، وقد استند ابن خلدون لإضفاء مشروعية على حكمه القيمي – السلبي على مهنة الفلاحة بمشروعية دينية تمثلت في الحديث النبوي «ما دخلت هذه الدار قوم إلا دخله الذل». والإشارة هنا إلى السكة [المحراث] التي رآها النبي بإحدى دور الأنصار. إن الحكم المتضمن في «مقدمة» ابن خلدون يتضمن ما يسميه د. محمد جسوس بالعائق التراثي كأحد العوائق التي تحول وتأسيس معرفة موضوعية بواقع الفلاح في المجتمعات العربية–الإسلامية، وذلك لأن المعرفة الخاصة بالمجتمع الفلاحي مستمدة من مصادر غير فلاحية، ومن مثقف مدني ينتمي لنخبة حضرية تدور في فلك سلطة مركزية وحضارة إسلامية كان قطبها هو المدينة، فالمجتمع الفلاحي لم ينتج المكتوب. تضاف إلى ذلك مسألة ثقافية مميزة للمجتمعات المغاربية وتتمثل في الثقافة الأمازيغية، مما يدل على أن تراث الفلاحين حتى الشفوي منه كان التعبير عنه بالأمازيغية.[7] كما تتضمن «المقدمة» حكما واقعيا يعبر عن طبيعة العلاقة السياسية بين الحكم المركزي [الملك العضوض]، والفلاحين كعلاقة متميزة بالقهر والاستطالة و «اليد العالية» مما يجعل

[6] – ابن خلدون. المقدمة. الجزء2. الطبعة3. دار النهضة للطباعة والنشر. الفجالة. القاهرة. محرم 1401هـ. تحقيق د.علي عبد الواحد وافي. ص ص 926–927.

[7] – د. محمد جسوس. محاضرات السلك الثالث السنة الجامعية 1987/1986، كلية الآداب العلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط.

من الزكاة غرامة، والجبايات والضرائب ضرورة مفروضة على الفلاحين يؤدونها من محاصيلهم الزراعية ومواشيهم.

من المراجع التراثية الأساسية التي يمكن الاستناد إليها في الثقافة العربية–الإسلامية لمعرفة التصورات المتضمنة في هذه الثقافة إزاء الفلاحين نذكر «الفتاوي الفقهية» من خلال إبداء الفقهاء لآرائهم في «النوازل» المتمثلة في أحداث جديدة قد تتميز بالشدة والقسوة، ولم يصدر فيها نص ديني واضح. إلا أن أغلب النوازل لا تشير إلى المكان والزمان وحتى تلك التي تضمنت فتاوي في مسائل الفلاحة من أكارة ومغارسة ومزارعة وحراثة طغى على نصوصها تصدير فقهي طويل، بينما الفتوى الفقهية الخاصة بالشؤون الفلاحية تكون مقتضبة وثانوية. إن العنصر السائد في الخطاب الفقهي حول النوازل هو الإحالة على مرجعية عصر التدوين العربي، والعودة إلى النص الديني وذكر سيرة الصحابة، إضافة إلى احتكام واضح للنص الديني المكتوب، بينما المجتمع الفلاحي احتكم إلى ثقافة شفوية [8]. إن النوازل والفتاوي الفقهية صادرة في أغلبها عن فقهاء يجسدون نموذج «المثقف التقليدي» حسب تعبير غرامشي وهو المثقف المرتبط بالسلطة المركزية، الذي تربى في الوسط المديني. ولهذا فالنوازل المستعصية في قضايا الفلاحة يقفز عليها بالعودة مكانا وزمانا إلى العصر الأول للثقافة الإسلامية عوض الالتصاق بالواقع الاجتماعي للفلاحين، ومن هنا يمكن فهم رفضهم لعقود الإجارة وشركة الخماسة لأنها تنافي قواعد الفقه الإسلامية، دون فهم الشروط الاجتماعية التي تدفع بالخماس إلى قبول وضعه لضرورات اجتماعية واقتصادية قد تتجاوز ثبات الرؤية التي تميز الخطاب الفقهي.

يمكن للمتخصص في المصادر الدينية والتاريخية [ابن خلدون]، والفقهية [أدب النوازل] أن يستنتج أن الثقافة العربية الإسلامية تتضمن أحكاما، قيما وتصورات سلبية، بل وتحقيرية للفلاحين ولممارسة الفلاحة، وهي أحكام، قيم وتصورات مستمدة من المرجعية النصية الدينية من جهة أولى، كما هي مستمدة من المرجعية السوسيو–تاريخية من جهة ثانية والمتمثلة في كون المدينة هي مركز الحضارة الإسلامية بينما كان الفلاحون مصدرا

[8] – عبد اللطيف حباشي. حول صورة الفلاح في الثقافة العربية–الإسلامية– أدب النوازل نموذجا–: مجلة « الأمل ». عدد 9. 1997. ص ص 61–82.

حلوبا لاستخلاص الجبايات وفئة تخضع للإذلال والقهر وتسلط «اليد العالية»، وهذا ما يفسر هامشية المسألة الفلاحية في الثقافة العربية الإسلامية.

2- صورة الفلاح في الثقافة الغربية

يبدو أن دراسة كيفية تناول التراث الغربي للمسألة الفلاحية من خلال مرجعياته المكتوبة والشفوية، القديم منها والحديث، هي دراسة محكومة بنسبية نتائجها ومحدودية أفقها النظري لأن الثقافة الغربية متعددة المصادر والتخصصات وذات قنوات لسانية متنوعة أهمها الإنجليزية، الفرنسية والإسبانية. لكن يمكن على ضوء الوقائع التاريخية للأزمنة المعاصرة وما أنتجته من منظومات فكرية لها تخصصات معرفية متنوعة، أن نثبت وجود نظريتين أساسيتين وجهتا الأبحاث في العلوم الاجتماعية كما شكلتا الإطار المرجعي والبيئة الإيديولوجية لأنظمة سياسية سواء في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أو طيلة القرن العشرين، وهما النظرية الليبرالية والنظرية الماركسية، فما هي الصورة المكرسة إزاء الفلاح ضمن كل نظرية من النظريتين؟

أ- النظرية الليبرالية:

تعتبر النظرية الليبرالية سابقة للنظرية الماركسية من حيث التأسيس والنشأة، بل إن النظرية الثانية بلورت مفاهيمها وأطرها النظرية انطلاقا من النتائج التي تضمنتها تحليلات النظرية الأولى، وهذا يظهر بصورة واضحة في علاقة كارل ماركس بدافيد ريكاردو حيث أسس نظريته في تحليل الاقتصاد الرأسمالي انطلاقا من المصنع الإنجليزي، من خلال قراءته لريكاردو في مرحلة أولى ونقده إياه في مرحلة ثانية بإبراز أن «فائض القيمة» يتحقق في دائرة الإنتاج، وفي العلاقات الاجتماعية للرأسمال والعمل المأجور، لا في دائرة التوزيع وتسويق المنتوج حين يتحول إلى بضاعة. تستمد النظرية الليبرالية أصولها من مواكبتها للتطور الذي عرفته الطبقة البورجوازية حيث أنها لم تحقق ثورة صناعية فقط، بل حققت ثورة زراعية موطنها الأصلي هولندا في القرنين 16 و 17 كبلد كان يعرف كثافة سكانية. ستنتقل هذه الثورة الزراعية إلى بلد عرف كثافة سكانية منخفضة في القرنين السابع عشر والثامن عشر هو إنجلترا. إلا أن الشكل المتطور للنظرية الليبرالية في المجال الاقتصادي هو الذي

يحضر في نظرية روستوف Rostow حول المراحل الخمس للنمو الاقتصادي[9] ، الذي لا يقتصر على القطاع الصناعي، بل للقطاع الفلاحي دور أساسي، فروستوف يجعل من الموارد الغذائية قاعدة اقتصادية في مرحلة اقتصادية في مرحلة الانتقال الممهدة لمرحلة الإقلاع الاقتصادي [10]. على الفلاحة أن توجه نحو تحقيق حاجيات تسويقية وأيضا إنتاج رساميل تنمي القطاع «العصري» في الاقتصاد، وهو القطاع الصناعي[11]. إن نظرية روستوف تجعل القطاع الفلاحي مرتبطا بالقطاع الصناعي، بل إن تطويره يعتبر تصنيعا له، وعصرنة لأدواته ووسائله، حتى يكون قطاعا تمويليا للنمو الاقتصادي، لأن التجربة التاريخية للبلدان الأوربية كما سلفت الإشارة أظهرت أن الزراعة «شكلت العمود الفقري للثورة الصناعية» كما يؤكد بول بايروك[12].

لا نعثر ضمن هذه النظرية الليبرالية الماكرو–اقتصادية على حضور للفلاح أو اهتمام بفئة الفلاحين، فالنمو الاقتصادي يتخذ تحديث الفلاحة وسيلة لتحقيق النموذج الليبرالي في التقدم. تمكن هذا النموذج الذي يعود إلى روستوف من الهيمنة على خطاب نظرية الاقتصاد العالمي، وهو الذي حاولت المنظمات الدولية خاصة «صندوق النقد الدولي» و «البنك العالمي للإنماء والتعمير» تطبيقه. لكن الاتجاه المهيمن لدى هذه المؤسسة الثانية هو اتجاه سياسي ضمني حاول الاهتمام بالعالم القروي من خلال تطبيق الإصلاح العقاري، ومساعدة دول كثيرة لإنجاز مشاريع استثمارية في القطاع الفلاحي كحالة المغرب. لم تهتم النظرية الليبرالية بالفلاحة إلا من منظور اقتصادي يتوخى تحقيق المردودية والرفع من الإنتاج، وفي هذا الاهتمام تغيب المسألة الفلاحية في بعدها السوسيولوجي، المتمثل في معرفة الحقل الاجتماعي الذي هو موضوع للتحديث لتحقيق النمو الاقتصادي: حقل يتشكل من فئات وطبقات لها ثقافة تاريخية ذات قيم وتمثلات رمزية قد لا تستسيغ خطط التحديث والعصرنة المطبقة على القطاع الفلاحي لأن الفلاح يمارس عمله داخل مجال رمزي وفي توافق بين مجال إيكولوجي ومجال اجتماعي [الإطار السوسيو–مجالي].

---

[9]– بول باريوك. مآزق العالم الثالث. دار الحقيقة. بيروت. 1973. ص ص 26–27

[10] – W-W Rostow. Les étapes de la croissance économique. Ed. Seuil. Paris. 1963.p.40.

[11] – Ibib.p.44.

[12]– بول بايروك. مرجع مذكور. ص 33.

أغفلت النظرية الليبرالية الإطار السوسيو–مجالي الذي ستطبق فيه خطاطتها الاقتصادية لأنها اختزلت النمو الاقتصادي في مجرد تطبيق مادي لأساليب تقنية، علما أن التكنولوجيا هي منتوج نسق غربي مما يجعل الفلاح يتعامل مع منتوج غريب عنه كما يجعل الاقتصاد الوطني لبلد متخلف مرتبطا بمعرفة واستيعاب تكنولوجيا نسق اقتصادي غربي [13].

لا يمكن للتحديث أن يرتبط بالأشياء المادية فقط من خلال تحقيق نمو اقتصادي وتراكم للرأسمال، بل هو تحديث يجب أن يهتم بالكائنات البشرية، وهنا يكمن الخطأ النظري لـ «حكمة التحديث» التي أخذت بها دول العالم الثالث كما يثبت أحد الباحثين السوسيولوجيين المغاربة [14]، فالمنطق الذي وجه النظرية الليبرالية هو ترسيخ تقابل ضدي بين «الحديث» و «التقليدي» وإخراج القطاع الفلاحي كقطاع «تقليدي» من دائرة «التخلف» ليصبح قطاعا «حديثا» شبيها بالقطاع الصناعي. وفي ذلك عدم معرفة بوتيرة التغير المميز للمجتمعات القروية ومطابقة عمياء بين التحديث الصناعي الذي يتحقق بتغيير تقني سريع والتحديث الزراعي الذي لا يتحقق بتكيف سريع للفلاح مع الأساليب التقنية الحديثة من خلال إدماجها في النسق الثقافي «التقليدي» للمجتمع القروي. هنا تبدو مساهمة الأنثروبولوجيا ذات مشروعية كبيرة لأنها ساهمت – كما يقول جورج بلاندييه– في وضع أسس مستقبلية لدراسة المجتمعات التي تتغير وفق «سرعات» مختلفة [15].

تتخذ النظرية الليبرالية الفلاح في إطار عملية التحديث كوسيلة بشرية لتطبيق الخطط التنموية لتمكين الأرض من الإنتاج المتزايد وضمان مردودية مرتفعة، ولذلك تتمحور سيرورة التنمية حول البعد الاقتصادي وحده، ويتم إغفال أبعاد أخرى أساسية في عملية التنمية. يظهر عزيز بلال دور العوامل الثقافية، السياسية والإيديولوجية في سيرورة التنمية وينتقد النظرية التنموية التي تختزل التنمية في البعد التقني فيسميها بالإيديولوجيا التنموية Idéologie développementiste كإيديولوجيا تقصي باقي عناصر المشروع التنموي وتختزل الممارسة الاجتماعية في مجرد ممارسة تقنية [16]. النظرية الليبرالية إذن تتضمن في مرجعيتها النظرية، كما في مجالها التطبيقي نزعة أذاتية، تحول الفلاح إلى «نكرة» وعنصرا

---

[13] – Farik Kannane. « Science, technologie et développement rural » Alasas. N°49./1983.pp26-29.

[14]– محمد شقرون. مفهوم التحديث واستعمالاته في سوسيولوجيا المجتمعات النامية. مجلة الوحدة/العدد 85/1991 ص ص 9–14.

[15] Georges Balandier. Sens et puissance. 2.ed.P.U.F. 1981. PP 144-145.

[16] – Aziz Belal. Développement et facteurs non économiques .SMER. Rabat. 1980. pp81-100.

يؤدي وظيفة السخرة لتحقيق نمو مرتفع لاقتصاد عالمي لا يشكل الاقتصاد الوطني سوى حلقة صغيرة وذيلية ضمن حلقاته.

ب- النظرية الماركسية

تمكنت النظرية الماركسية انطلاقا من تحليل نمط الإنتاج الرأسمالي في تشكيلته الاجتماعية من المساهمة في تشريح ماكرو –اقتصادي لآليات الرأسمالية، وهي كنظرية تموقع البورجوازية كما البروليتاريا كطبقتين أساسيتين متصارعتين في المجتمع الرأسمالي، فعينة التحليل بالنسبة لكارل ماركس هي «المصنع الإنجليزي»، لكن التشكيلة الاقتصادية والاجتماعية لا تتضمن هاتين الطبقتين فقط، بل هناك طبقات أخرى قد تتوزع إلى فئات اجتماعية.

يرى أحد كبار الفلاسفة الماركسيين الذين اقترحوا قراءة جديدة لكتاب «الرأسمال» أن ماركس لم يقدم نظرية لنمط إنتاج رأسمالي خالص إذ لا وجود لهذا النمط الإنتاجي بشكل خالص دون استمرار رواسب أنماط إنتاج أخرى بداخله، فالنموذج الإنجليزي الذي درسه ماركس لم يكن إذن نموذجا رأسماليا خالصا [17]. يكشف ماركس عن أثر التطور الرأسمالي على القطاع الفلاحي، فيبين أن التصنيع أدخل الآلة إلى العمل الفلاحي، فأدى إلى تعويض الإنسان بالآلة في أمريكا الشمالية وإلى إفراغ كلي للبوادي الإنجليزية من ساكنتها، فتحول الفلاح إلى أجير، وهكذا «حل التطبيق التقني للعلم محل الاستغلال الأكثر رتابة ولا عقلانية، وقطع الإنتاج الرأسمالي بشكل نهائي الصلة التي كانت تربط بين الفلاحة والمصنع منذ طفولتهما، لكنه خلق في نفس الوقت الشروط المادية لتركيب جديد وأكثر تطورا، أي اتحاد الفلاحة والصناعة على قاعدة التطور الحاصل في كل منهما في فترة انفصالهما الكلي (...) في المقابل، فكل تقدم في الفلاحة الرأسمالية هو تقدم ليس فقط في فن استغلال العامل، بل أيضا في فن استنزاف الأرض، فكل تقدم في فن الرفع من خصوبتها لفترة محددة، هو تقدم في استنزاف الموارد الدائمة لخصوبتها (...) لا يطور إذن الإنتاج الرأسمالي التقنية وسيرورة الإنتاج الاجتماعي إلا باستنزافه في نفس الوقت للمصدرين اللذان تنبع منهما كل ثروة: الأرض والعامل»[18].

[17] – Louis Althusser. Lire Le Capital. Tome2,/2. ed Maspero. Paris, 1980. pp.75-76.
[18] – Karl Max. Le Capital. Livre1.ed. Sociales. Paris 1977. pp359-361.

يتحول الفلاح إلى عامل أجير في السياق التطوري لنمط الإنتاج الرأسمالي، وتتحول فئة الفلاحين إلى بروليتاريا زراعية تحت ضغط ضرورة تاريخية لمنطق «تقدمي» له وجهان: وجه إيجابي يتمثل في إدخال التقنية إلى القطاع الفلاحي والرفع من إنتاجية الأرض وخصوبتها، ووجه سلبي يتمثل في هجرة الفلاحين لقراهم، وتحولهم إلى عمال بمصانع المدن على الخصوص، أما الذين فضلوا البقاء للعمل في الفلاحة فهم فقراء ليسوا عبيدا ولا أحرارا»[19]. أين تتموقع فئة الفلاحين ضمن النظرية الماركسية، وما هو المستقبل الذي رسمه لها ماركس؟

في تحليله للأوضاع السياسية في فرنسا سنوات 1848، 1849، 1850 أظهر ماركس أن العائلات المكونة من الفلاحين والتي تعيش في ظروف اقتصادية تفصلها عن باقي الطبقات الاجتماعية، تشكل هي أيضا طبقة قائمة بذاتها لكونها طبقة لا تحمل وعيا طبقيا وعاجزة عن تشكيل تنظيمها السياسي، لهذا ستبقى غير قادرة على الدفاع عن مصالحها الطبقية [20]، وهي بذلك[كطبقة] رغم ما تعرفه من استغلال اقتصادي فإنها تشكل عائقا أمام الثورة التي ستحققها البروليتاريا. إنها الطبقة الرابعة بعد البورجوازية، البروليتاريا والبورجوازية الصغيرة، إلا أنه محكوم عليها بأن تنحل وتذوب في البروليتاريا. لهذا فإن ماركس – سنوات بعد ذلك– وفي آخر فقرات "الرأسمال" يحرر مشروع مخطوط حول "الطبقات" لم يتمكن من استكماله، في نصه الأخير حول الطبقات في المجتمع الرأسمالي يغير تصنيفه الطبقي السابق معتبرا المأجورين الرأسماليين والملاك العقاريين الطبقات الثلاث الأساسية في نمط الإنتاج الرأسمالي[21]، ليؤكد أن التقسيم الطبقي لا يظهر بشكل خالص حتى في أنجلترا البلد «الذي عرف التقسيم الاقتصادي للمجتمع الحديث بشكل أكثر تطورا»[22].

لم تحظ طبقة الفلاحين في تحليلات كارل ماركس بتعريف نظري واضح، فهي ذات وزن سياسي كبير لأن ظروفها الاقتصادية القاسية بفرنسا في منتصف القرن التاسع عشر تدفعها إلى التعجيل بتطور سياسي "تقدمي"، لكنها ليست طبقة بالمعنى الاقتصادي لأنها لا تعي مصالحها الموضوعية ولا تتميز بالتجانس، وهذا ما يجعلها ذيلية وملحقة بالبروليتاريا. نستنتج أن تصور مؤسس الماركسية موضع هو أيضا الفلاحين كأداة في سيرورة التطور

[19] – Ibid. p. 487.
[20] – K.Marx. Le dix huit brumaire de Louis Bonaparte, Ed. Sociales. Paris. P. 129.
[21] K.Marx. Le capital .Livre 3.p.796
[22] ibid. p.796.

الرأسمالي تمهيدا للانتقال نحو الاشتراكية، فهم ليسوا سوى طبقة تؤدي وظيفة " السخرة السياسية" لإنجاز التحول نحو الاشتراكية وتحول "جماهير الفلاحين" إلى بروليتاريا نتيجة سيرورة تقدمية لتطور موضوعي في قوى الإنتاج في المجتمع الرأسمالي.

ستجد النظرية الماركسية تحققها في إطار الدولة مع الثورة البلشفية في أكتوبر 1917، وسينقل لينين التصور النظري الذي صاغه ماركس حول الفلاحين إلى الممارسة السياسية حيث ستكون الطبقة الفلاحية مجرد طبقة تعضد البروليتاريا لترسيخ الاشتراكية ودحر "القوى البيضاء" المتمثلة في التكتل الاقتصادي – السياسي – العسكري للإقطاع الروسي. توخت سياسة لينين نزع الأراضي للفلاحين بنهج مبدأ التأميم الشامل وتحويلها إلى "كولخوزات"، إلا أن تشبث الفلاحين بأرضهم (وهي المجال الرمزي والثقافي الذي يربطهم بالعالم) شكل في تصور لينين عائقا أمام إنجاز الثورة الاشتراكية، فكان عليه أن يطبق" السياسة الاقتصادية الجديدة " التي تفسح مجالا ضيقا للفلاحين للتملك الفردي للأراضي. أدرك لينين تأخر القطاع الفلاحي بروسيا وركز على ضرورة معرفة المعطيات الأساسية حتى يمكن معرفة طبيعة العلاقات الفلاحية: «فقط حين نحدد طبيعة الطبقات واتجاه النمو، يمكن آنذاك الاهتمام بمسائل خاصة كسرعة النمو أو تحول ما في الاتجاه العام »[23] . إن الهدف هنا هو تحديد طبيعة الطبقات المتصارعة، وهل انقسمت طبقة الفلاحين إلى بورجوازية وبروليتاريا، وليس تطوير قطاع الفلاحة، فمسألة النمو في القطاع الفلاحي تمت موضعتها في سياق سياسي هو إمكانية تحويل الفلاحين إلى طبقة سياسية تعضد البروليتاريا في إنجاز "الثورة الاشتراكية". لهذا لم يختلف لينين اختلافا كبيرا عن ماركس، بل هو يؤكد نتيجة تحليله بإبراز أن الرأسمالية قلصت من أعداد الفلاحين بفعل ظهور الآلة التي دفعت بهم إلى المدن ليتحولوا إلى عمال في المصانع، مبينا أن «التاريخ لم يدحض قانون ماركس حول الفلاحة فيما يخص البلدان الرأسمالية الحالية، بل هو بالعكس أكده»[24].

يمثل تحليل لينين ل"تطور الرأسمالية في روسيا "بشكل عام، وتطور الفلاحة الروسية بشكل خاص الإثبات النظري والسياسي لتحليل ماركس للمسألة الفلاحية، فبالرغم من دقة تحليله والذي يعد مكملا لتحليل كاوتسكي للمسألة الزراعية [25]، فهو لا يجعل الفلاحين طبقة

[23] Lénine. La question agraire en Russie à la fin du 19eme siècle. Ed. Progrès. T 15. p134.
[24] Lénine. Le capitalisme dans l'agriculture. Ed . Progrès. Moscou T.4 p 111.
[25] Thami El Khayari Agriculture au Maroc .Ed Okad. Rabat. 1987. pp .434-451.

أساسية في مشروع "الثورة الاشتراكية" بل أداة لتحقيق نمو لا يجعل الفلاحين طبقة أساسية في مشروع "الثورة الاشتراكية" بل أداة لتحقيق نمو الرأسمالية، فنمو الفلاحة يعني تحديثها، والتحديث هو التصنيع (النمو= التحديث= التصنيع). بهذا المعنى تكون طبقة الفلاحين ملحقة بالبروليتاريا والبروجوازية وتذوب فيهما، فيغيب التحديد النظري الواضح للتحليل الماركسي–اللينيني للمسألة الفلاحية. يلاحظ أحد الباحثين الفرنسيين المهتمين بقضايا المغرب العربي في دراسته المعروفة «الفلاحون بين الخطاب والممارسة» أن الأحزاب الشيوعية تعاملت مع الفلاحين بعدم ثقة من مؤتمر باكو سنة 1920 حتى حرب الجزائر[26]، مدعما رأيه بالأطروحة التي تعتبر أن الماركسيين أعادوا إنتاج الوهم العلموي بأهمية التقنية والتحديث انطلاقا من إيمان غير مبرر بالنخبوية الثورية للطبقة العاملة[27].

بالنسبة للنموذج الصيني كأحد النماذج الخاصة بالتجربة الاشتراكية فهو يظهر نموذجا متفردا في معالجته للمسألة الفلاحية كمعالجة لا تتصور تحقيق التغيير السياسي في بلد أغلبيته من الفلاحين دون الاستناد عليهم كقاعدة أساسية. لهذا تتشكل القاعدة الاجتماعية الطبقية "للمسيرة الطويلة" التي قادها ماوتسي تونغ من الفلاحين الذين قاموا بثورات في القرن التاسع عشر لكنها أحبطت. اعتمد الشيوعيون الصينيون على الفلاحين دون أن يتحول الحزب الشيوعي الصيني إلى حزب فلاحي في سياسته في المجال الفلاحي رغم أن غالبية أعضائه تتشكل من الفلاحين، بل إنه طبق إصلاحا زراعيا ليبراليا في الشمال الغربي للصين كما دافع الشيوعيون على الفلاحين الأغنياء[28]. يستنتج الأنثروبولوجي إيريك وولف أنه تمت تعبئة الفلاحين المتوسطين "الأحرار" بمناطق هامشية رغم أنهم محافظون وتقليديون، وسبب الالتقاء بين فئات فلاحية وسطى ونخبة هامشية شيوعية هو تضرر الأولى من تقلبات الاقتصاد التجاري كعامل اقتصادي، وعودة أبنائهم المتعلمين في المدينة بثقافة سياسية حاملة لقيم السخط والتمرد والمعارضة، يتأثر بها الآباء المشكلون للفئة الوسطى من

---

[26] – Bruno Etienne. « La paysannerie entre le discours et la pratique », in : les problèmes agraires au Maghreb, Annuaire de l'Afrique du Nord. C.N.R.S/C.N.R.S.M. 1975. PP3-4.

[27] – Ibid, p3.

[28] إريك وولف، **الحروب الفلاحية في القرن العشرين**، ترجمة أكرم الرافعي. دار الحقيقة، بيروت، 1977. ص ص 150–156

الفلاحين[29]. إنه عامل ثقافي ساهم بتظافر مع العامل الاقتصادي في تحول هذه الفئة إلى قاعدة سوسيو- طبقية بالنسبة ل "الثورة الاشتراكية" كما خططت لها نخبة سياسية بزعامة ماوتسي تونغ.

أظهر الخطاب السياسي للدولة الاشتراكية بالصين –الخطاب الماوي أساسا- اهتماما واضحا بالمسألة الفلاحية أكثر من الخطاب الماركسي- اللينيني رغم أنه يجسد استمرارا له، كما حاول في ممارسته السياسية أن يجد موقعا للفلاحين بمحاولته تطبيق هدفين متناقضين: ثورة زراعية وإصلاح ليبرالي. لكن محاولة الدولة لن تتحقق، فابتداء من سنة 1976 سيتم الحد من مبادرات الفلاحين في تسيير الأراضي واستغلالها، وسيظهر اتجاه إداري مركزي يراقب الفلاحين ويقنن المسألة الفلاحية بعيدا عن المنتجين. أصبحت السياسة الفلاحية الجديدة للدولة الصينية تركز على تسريع سيرورة "التحديث" وتنمية عملية الإنتاج وذلك بإخضاع الفلاحين لمراقبة أطر مركزية وموظفين محليين[30] . تغيرت أهداف السياسة الاقتصادية من التركيز على ثلاثية الفلاحة، الصناعة الخفيفة وأخيرا الصناعة الثقيلة، إلى تركيز أحادي على "وتيرة النمو الاقتصادي" وإعطاء الأولوية لتراكم الرأسمال وتطوير قوى الإنتاج. هكذا تم تبني التركيز الأحادي البعد على الصناعة على حساب الفلاحة وتأكيد التصور الإنتاجوي لستالين "الوتائر هي المحددة لكل شيء"، فكان الابتعاد عن الأهداف المحددة منذ 1956 [31].

رغم البدايات التأسيسية ذات المظاهر الإيجابية للتجربة الصينية في معالجة المسألة الفلاحية خطابا وممارسة في برامج "الثورة الزراعية" كما في أشكال تطبيقها العملي، ورغم ما يميز علاقة الإيديولوجيا الماوية بالإيديولوجيا الماركسية-اللينينة من استقلال نسبي (علاقة الخاص بالعام)، فإنها تجربة انتهت إلى ترسيخ نموذج "التحديث" المرتكز على تسريع وتيرة النمو، مع تسيير إداري للاستغلاليات الزراعية أنتج بيروقراطية مركزية ذات نفوذ كبير. هكذا دعمت التجربة الصينية التصور الأداتي اتجاه الفلاحين الذي صاغه ماركس وطوره لينين

---

[29] نفس المرجع، ص ص 283-284

[30] Charles Bettelheim. **Questions sur la Chine après la mort de Mao Tsé-Toung.** Ed. Maspero. Paris 1978/pp 28-29

[31] Charles Bettelheim. **Questions sur la Chine après la mort de Mao Tsé-Toung** Ed Maspero. Paris 1978/pp 28-29

في تأسيسه للدولة السوفييتية، مع فرق واضح يتمثل في استمرار حضور الطبقات الفلاحية في الخطاب السياسي الرسمي وغيابها في ممارسة الدولة لإصلاحات في القطاع الفلاحي هدفها تطوير الرأسمال النقدي بصورة أحادية مما ينتج عنه إغفال الرأسمال البشري وتهميش الفلاحين.

يعتبر تحليل غرامشي للمجتمع الإيطالي تحليلا له تفرده ضمن التحليلات الخاصة بالنظرية الماركسية، فقد انطلق في تفكيره من مرجعية سياسية تهدف إلى تغيير المجتمع الرأسمالي بإنجاز "الإصلاح الثقافي والأخلاقي" لبناء كتلة تاريخية مكوناتها الأساسية هي: المثقفون العضويون، العمال والفلاحون. الخاصية الأساسية للمجتمع الإيطالي هو أنه مجتمع فلاحي متخلف في جنوبه وصناعي متقدم في شماله. تناول غرامشي هذه الثنائية الجغرافية، الاقتصادية والثقافية المقسمة لهذا المجتمع في مقال أساسي حول المسألة الجنوبية La question méridionale عنوانه «قضايا حول المسألة الجنوبية» سنة 1926. عرف غرامشي في هذه الدراسة العميقة مجتمع جنوب إيطاليا بأنه «كتلة كبيرة متكونة من ثلاثة شرائح اجتماعية: جماهير واسعة من الفلاحين غير مكتملة الشكل ومتفككة، مثقفو البورجوازية القروية الصغيرة والمتوسطة، ثم كبار المالكين للأرض والمثقفون الكبار»[32]. الفئة الأولى هي موضوع لاستغلال من طرف الإقطاعيين والفئة الثانية رغم أصولها القروية فهي تخجل من التخصص في النشاط الفلاحي ولذلك ورث المثقفون عن هذه الطبقة احتقارا كبيرا للعمل الفلاحي، وهذا هو حال رجل الكنيسة بالجنوب الإيطالي كنموذج ل«المثقف التقليدي» الذي نجد له نظيرا في الشمال الذي لا يتقيد بالطقوس الدينية فقط بل يهتم بتوسيع أملاكه العقارية وهو صلة الوصل بين كبار الملاكين والفئات الفلاحية. بذلك يستنتج غرامشي أن المثقفين بالجنوب يشكلون «الشريحة الاجتماعية الأكثر أهمية في الحياة الوطنية لإيطاليا. إذ يكفي التفكير في كون اكثر من ثلاثة أخماس بيروقراطية الدولة مكونة من الجنوبيين حتى نقتنع بذلك»[33]. يكمن التجديد النظري في فكر غرامشي ضمن النظرية الماركسية في تحليله للمسألة الفلاحية المتموضعة جغرافيا واجتماعيا في الجنوب وفي إسناده لدور أساسي للمثقفين. لكن هذا الدور لا ينفصل عن المرجعية السياسية للنظرية الماركسية المتمحورة

[32] – Gramsci. Gramsci dans le texte. Ed. Sociales. Paris. 1977. p133.
[33] – Ibid. p. 114.

حول إشكالية "السلطة" كما لا ينفصل عن فلسفة للتاريخ ذات مرجعية "تقدمية" في اتجاه تطوير قوى الإنتاج، والتحكم في الطبيعة وهو ما يعني بالضرورة تطبيق التحديث كتصنيع للفلاحة بالجنوب كغاية ستتحقق من خلال المثقفين.

تناولت النظرية الماركسية الفلاحين باعتبارهم طبقة غير متجانسة لها وظيفة كوكبية وذيلية مقتصرة على دعم الوظيفة السياسية للطبقة العاملة من أجل التغيير. وإذا كان الخطاب الماوي والخطاب الغرامشي يتميزان من حيث المقاربة النظرية للمسألة الفلاحية ضمن النظرية الماركسية، فإنهما معا لا يخرجان عن مرجعية المنظومة الماركسية التي انتهت على مستوى التطبيق إلى تهميش الفئات الفلاحية. يعرض "إريك وولف" لأهم الثورات الفلاحية في القرن العشرين من خلال أهم نماذجها المكسيك، روسيا، الصين، الفيتنام، الجزائر وكوبا، فيستنتج في خلاصة تحليله الأنثروبولوجي العميق إلى أنها كثورات لم تكن مجرد رد فعل على مشاكل محلية، بل كانت استجابات محلية للتصدعات الكبرى الناتجة عن انقلاب أوضاع المجتمع نفسه، فباتساع مجال السوق واقتلاع الفلاحين من جذورهم الاجتماعية ضعفت السلطة السياسية، مما يقوي حظوظ ظهور زعيم جديد يحمل مشعل القضية الفلاحية، وما إن تضع الحرب أوزارها، ويتغير الجهاز الحاكم، حتى تبدأ بنية سياسية جديدة في التشكل[34]. إنه ميكانيزم إعادة إنتاج السلطة السياسية وإن اختلفت الزعامات، لكن الخاسر الأكبر في الدورة التاريخية الطويلة التي بدأت منذ القرن التاسع عشر واستمرت طيلة القرن العشرين هم الفلاحون، بناة "الثورة" وضحاياها في نفس الوقت. كان الدور الاجتماعي للفلاحين في النظرية الماركسية دورا ثانويا، إذ يتعين إقصاؤهم لتستقيم ثنائية البرجوازية/البروليتاريا على مستوى التحليل النظري المجرد، وليمهد الطريق على المستوى السياسي "لانتصار" الطبقة الثانية على الطبقة الأولى. أما حضور طبقة أخرى من المستغلين (بفتح الغين) وأخرى من المستغلين (بكسر الغين) في المجال القروي فهو مزعج على مستوى التحليل النظري وعائق على مستوى تحقيق «الثورة». لهذا ورثت كتابات ماركسية التصور الأداتي للفلاحين الذي صاغه ماركس ولينين مؤكدة أن «الفلاحين في المجتمع الرأسمالي هم طبقة وسطية، غير أساسية وموجودة في جميع البلدان تقريبا، وهي

[34] إيريك وولف. مرجع مذكور، ص 287.

تنحل بتأثير العلاقات الرأسمالية فارزة البرجوازية الريفية والبروليتاريا الريفية(...) البرجوازية الصغيرة تنقسم إلى قسمين هما البرجوازية المدينية والفلاحون، والفلاحون ينقسمون بدورهم إلى فلاحين أغنياء ومتوسطين وفقراء الخ... »[35]. بين إثبات أن الفلاحين ينحلون كطبقة ليتوزعوا بين البرجوازية والبروليتاريا، وبين تصنيفهم أحيانا ضمن البرجوازية الصغيرة تترسخ الصورة الغامضة للفلاح في النظرية الماركسية، كما يتأكد التعامل معه كأداة لإنجاح «ثورة» العمال لا «ثورة» الفلاحين.

إن الخاصية الأساسية المشتركة بين النظريتين الليبرالية والماركسية هي حضور تصور أداتي للمسألة الفلاحية، إذ تمت مقاربة القطاع الفلاحي مقاربة اقتصادية اختزلت سيرورته التنموية في عملية التصنيع السريع المتمثل في الاعتماد على المكننة الزراعية بإدخال آلات جديدة، بينما غابت المقاربة التنموية الشمولية التي تتناول المسألة الفلاحية في كل أبعادها الاقتصادية، الثقافية والسياسية، بتأسيس تنمية مندمجة تحقق تفاعل المجتمع القروي الفلاحي مع باقي أنساق المجتمع. رغم التباين الإيديولوجي بين المرجعية الليبرالية والمرجعية الماركسية فإنهما تتفقان في تحديد غاية أساسية وهي وتيرة النمو الاقتصادي Rythme de la croissance économique . كانت هذه الغاية هي العنصر المهيمن في الخطاب كما في الممارسة المرتبطين عضويا ووظيفيا بالنظريتين الليبرالية والماركسية. صورة الفلاح في النظرية الأولى هي صورة إنسان "ممكنن" عليه أن يرفع من الإنتاجية الزراعية والحيوانية ويطبق توجيهات العقل التقني الحديث لتحقيق تراكم للرأسمال المندمج رغما عنه في وضعية تبعية لنسق الرأسمال الدولي وهذه هي صورة الفلاح في النظرية الاشتراكية للماركسية التي تؤكد في ممارستها من خلال جهاز الدولة نفس الصورة، وإن كانت على مستوى الخطاب تتميز عن النظرية الليبرالية بإثبات أن الفلاحين ينقسمون إلى مستغلين ومستغلين مما يؤدي على مستوى التحليل النظري إلى إدماج من يمارس عليهم استغلال في طبقة البروليتاريا ومن يمارسون الاستغلال في طبقة البورجوازية (الرأسمالية الزراعية)، وهذا يحمل دلالة على مستوى الممارسة السياسية هي ذوبان المصالح الخاصة للفلاحين والمتميزة عن باقي المصالح الموضوعية لطبقات اجتماعية أخرى في الإطار الخاص بالبروليتاريا أو البورجوازية

---

[35] فلاديسلاف كيلله وماتفي كوفالسون، المادية التاريخية: دراسة في نظرية المجتمع الماركسية، ترجمة إلياس شاهين.ط.2.دار التقدم. موسكو ص 175.

كإطار للصراع سينتهي نظريا بتحقيق الاشتراكية بينما في الممارسة كانت الدولة ترسخ إطارا اقتصاديا وسياسيا للرأسمالية، إنها رأسمالية الدولة التي تشتغل وظيفيا من خلال بيروقراطية الحزب الحاكم.

المحاضرة الثالثة

السوسيولوجيـــــــــا القرويـــــــــــــــــة بالمغـــــــــــرب « بول باسكون »

للدكتور محمد سلام شكري

في قراءتنا لسوسيولوجيا بول باسكون كأهم مؤسس و صانع للسوسيولوجيا القروية بالمغرب ، ترتسم خطوط متعددة للتدخل النظري و الميداني لعالم اجتماع استمد مفاهيمه النظرية و السوسيولوجية كما صاغ بناءه النظري المركب انطلاقا من بحوث ميدانية متنوعة شملت مجالات جغرافية مختلفة بالمغرب . نقترح لمقاربة السوسيولوجيا القروية لبول باسكون العرض ثلاثة محاور أساسية تقرب و لا تحيط الإحاطة الشاملة بعمق التدخل العلمي و الميداني لبول باسكون في المجال الاجتماعي بالمغرب :

1) بول باسكون : البيوغرافيا و البيبليوغرافيا

2) المثقفون : الدولة الفلاحون

3) المجتمع المغربي مجتمع مركب

1) بول باسكون : البيوغرافيا و البيبليوغرافيا

يرتبط المسار البيوغرافي لبول باسكون و يتداخل مع مساره البيبليوغرافي حيث أن سيرة حياته (1932– 1985) بصمت كما أثرت في تفكيره و إنتاجه فهو ابن فاس يبدو ظاهريا من إنتاج كولونيالي ، إلا أن ارتباطه بالمغرب ، وتعلقه بالفلاحين و بالعالم القروي ، دفعاه للبقاء بالمغرب عوض العودة مع الفرنسيين في السنوات الاولى لاستقلال المغرب . بعد حصوله على الاجازة في علم الاجتماع بباريس سنة 1958 ، أسس رفقة زملاء مغاربة و فرنسيين أول " فريق متداخل الاختصاصات للأبحاث في العلوم الانسانية " (Equipe interdisciplinaire en Sciences humaines E.I.R.E.SH). مع مجموعة من الباحثين في العلوم الاجتماعية من علم اجتماع و

اقتصاد و جغرافيا وقانون. كانت أهم الأسماء المشكلة لهذا الفريق تتشكل من باسكون ، بنسيمون ، بودربالة ، فوي ، لحليمي ، لازاريف ، لحلو ، كارسنتي ، بنعلي ، مواتيه ، شوفالدونيه و آخرون . استمرت تجربة هذا الفريق الشاب لمدة خمس سنوات (1958- 1963) وهي تجربة مؤسسة لانطلاقة البحث في العلوم الاجتماعية بالمغرب ، كما هي تجربة مؤسسة لانطلاقة البحث العلمي التطبيقي المواكب لتأسيس وحدات إنتاجية و مؤسسات اقتصادية كبرى في السنوات الأولى للاستقلال و التي همت مجالات و مؤسسات الفوسفاط ،الري ، الماء والإصلاح الزراعي ، مع مساهمة واضحة في وضع أسس المخطط الاقتصادي الخماسي 1960- 1964 .

بعد نهاية تجربة فريق EIRESH سيلتحق بول باسكون بالمكتب الوطني للري ليعين سنة 1964 مسؤولا عن منطقة الحوز ، حيث سيصبح مديرا " للمكتب الجهوي للاستثمار الفلاحي للحوز " سنة 1966 تزامنا مع حدث حل المكتب الوطني للري و تأسيس " المكاتب الجهوية للاستثمار الفلاحي " . كانت خطة وزارة الفلاحة بمنطقة الحوز وتحت المسؤولية المباشرة لعالم الاجتماع المغربي تقتضي استعادة أراضي المعمرين و أراضي القائد الكلاوي ، وإعادة توزيعها على الفلاحين المغاربة و البحث عن الوحدات الزراعية الأكثر إنتاجية ، ووضع خطة لسياسة الري الكبير . في كل هذه المحطات و داخل سلسلة كل هذه الإجراءات الكبرى كان لحضور باسكون أثر فاعل بمنطقة الحوز مزاوجا بين إدارته ل " المكتب الجهوي للاستثمار الفلاحي لحوز مراكش "

وبين إلقائه لمحاضرات في السوسيولوجيا القروية بمعهد البحث الزراعي سنة 1968 – 1969 ، ليعين أستاذا محاضرا بنفس المعهد بشعبة العلوم الإنسانية سنة 1970 ، حيث أن هذه المزاوجة كانت حافزا لباسكون لإنجاز أطروحته الجامعية الشهيرة حول " حوز مراكش " التي ناقشها سنة 1975 و نشرها سنة 1977 ،رغم مغامرته الميدانية الشاقة المتمثلة في تأطيره الميداني للطلبة المهندسين بالمعهد الزراعي بالرباط و إشرافه على خرجات و استطلاعات ميدانية تمكن الطالب المهندس من معرفة الحياة الاجتماعية للساكنة القروية و للفلاح المغربي تحديدا والعيش معه لفترات دورية .

تنوعت إنتاجات بول باسكون فشملت موضوعات متنوعة و غطت جل مناطق المغرب ،الحوز، سوس ، دكالة ، الجهة الشرقية ، الصحراء ...الخ ، نزل عالم الاجتماع المغربي الى البئر الاجتماعي للمغرب العميق البعيد و المنسي ، نهل و قرأ في حقول التاريخ ، الجغرافيا ، القانون ، و الاقتصاد ، دون الحديث عن حقل التخصص علم الاجتماع .، حلل كما رصد ميدانيا ظواهر و أبعاد الري ، الملكية الزراعية ، أنماط العيش ، التشكيلية الاقتصادية و الاجتماعية ، اليد العاملة الزراعية ، الشباب القروي ، الصراعات و التناقسات القبلية حول المجالات الرعوية . كان للتنوع البيوغرافي في مسار باسكون أن أغنى حصيلته البيبليوغرافية بإصدارات لا يمكن إغفالها في مجال السوسيولوجيا القروية بالمغرب اهمها أطروحته " حوز مراكش " و كتابه "درسات قروية " و دراسته حول التاريخ الاجتماعي لتازروالت " إضافة الى كتاب باشتراك مع محمد

الناجي " الفلاحون بدون أرض بالمغرب " . إلا أن قسما مهما من إنتاج باسكون ظل موزعا بين مجلات ودوريات مغربية و دولية . بعد اختفاء الابن جيل و البنت نادين في رحلة دراسية بالجنوب المغربي سنة 1976 وعدم ظهورهما انغمس باسكون في رحلة عميقة للبحث السوسيولوجي ليلقى نفس المصير في حادثة سير بموريطانيا رفقة الباحث الشاب أحمد عريف ، حيث خلف باسكون تراثا سوسيولوجيا متنوعا ركب بين النظري و الميداني ، بين المفهمة السوسيولوجية و التحري المباشر، بين التجديد انطلاقا من المجتمع المحلي كمجتمع للدراسة وبين تناول هذا المجتمع منطلقا للتجديد النظري و الصياغة المفاهيمية . لكن تبقى أهم أعمال باسكون ذات العلاقة الوطيدة بالسوسيولوجيا القروية هي " دراسات قروية " و " حوز مراكش " و هذا لا يعني أن باقي أعماله هي بمنأى عن حقل السوسيولوجيا القروية ، بل إن كل ما نشره بول باسكون انخرط و ارتبط بهذا المجال السوسيولوجي سواء خلاصة هنا أو هناك لبحث ميداني أو عناصر لتفكير نظري و تأسيس إيستمولوجي للمنهج المفترض إبداعه ميدانيا وللأدوات اللازم التسلح بها من قبل الباحث السوسيولوجي .

2) المثقفون الدولة ، الفلاحون

تشكل هذه التسمية الثلاثية عنوانا لأحد فصول كتاب باسكون " دراسات قروسة Etudes Rurales ، حيث تمحور تفكيره حول الإجابة على إشكال تاريخي وأكاديمي ومهم وهو : **كيف يمكن للمثقفين أن يرتبطوا ارتباطا عضويا**

بالفلاحين ؟ المقصود بالمثقفين لدى باسكون في المجال الإجتماعي القروي **التقنيون و المهندسون الزراعيون والباحثون الإجتماعيون المتورطون موضوعيا ، مهنيا وعلميا داخل المجتمع القروي.** إن التورط الموضوعي كارتباط عضوي لهذه الفئة بالفلاحين غير نابع من إرادات فردية أو رغبات شخصية ، بل هو يستمد مشروعيته من مجال تاريخي عميق ومتجذر يخص العلاقة بين الدولة والفلاحين من جهة ، وبين الدولة والتقنيين والمهندسيين من جهة ثانية . يقول باسكـــون « هناك تارخييا ، العديد من الأمور المعقدة بين الدولة والفلاحين والتي يتطلب التدقيق فيها ألانصاب بالدهشة حين نرى فئة التقنيين قد دخلت الصـراع في وقت متأخر وهي موضوعة بين الشجرة وقشرتها » ، إنه تعبير استعارة على الوضع الحرج الذي تعيشه فئة المهندسين التقنيين والباحثين الاجتماعيين في مجالات لا تخص السوسيولوجيا القروية فقط ، بل تخص أيضا الجغرافيا القروية والسوسيولسانيات . التقني في تعريف باسكون يعمم على " المهندسين الإقتصاديين وعلماء الاجتماع ... إلخ ، كل اللذين اقتنعوا باستعمال منهج معلن عنه أنه منهج خاص وعقلاني ، بحيث تتمثل وظيفتهم في تحويل الطبيعة الجامدة أو البيولولوجية أو البشرية " . ليس التقني محايدا وليست التقنية حيادية ، إنها غير بريئة حاملة للمصلحة السياسية للدولة ، والتقني موجود في وضع حرج بين سياسة الدولة ومعيش الفلاحين ، وضع حرج لأن تاريخ العلاقة بين الدولة

والفلاحين هو تاريخ صراعي اختزلته الكتابات الكولونيالية في ثنائية المخزن / السيبة ، المخزن يجسد المجال السياسي والترابي لنفوذ السلطة المركزية بقيادة السلطان ، والسيبة كحركة تمرد تمتد سياسيا وسوسيومجاليا عبر نفوذ قبلي ينفلت من رقابة المخزن وسلطته . إذا كان التقني كنعت لشرائح المهندسين والاقتصاديين وعلماء الإجتماع يرمز الى تجانس فئة فإن الفلاحين لا يشكلون طبقة اجتماعية متجانسة ، بل هم ينشطرون كما ينقسمون حسب ملكيتهم للأرض ، إذ هناك : " ثلاث فئات : الفلاحون الفقراء ، الفلاحون المتوسطون ، الملاكون الكبار . يعتبر هذا التصنيف مريحا ، إلا أنه يترك في الظل كل الغنى المميز للأوضاع الملموسة الناتجة عن مختلف طرق اندماج البوادي ضمن السوق الرأسمالية العالمية " . يكفي التدقيق في فئة الفلاحين الفقراء لمعرفة أنها تتوزع الى فئات عديدة تتألف من الخماسين والفلاحين بدون أرض والفلاحين بدون عمل مستمر (اليد العاملة الزراعية الموسمية) ، وصغار الملاكين المتشبثين بأرضهم .

يساهم هذا التحديد المزدوج لكل من التقنيين والفلاحين في توضيح طبيعة العلاقة التاريخية القائمة بين الدولة والفلاحين كعلاقة تتحدد بناظمة مركزية واضحة في المجال القروي حيث تتحول إلى علاقة خاصة و واضحة بين المهندس الزراعي أو الباحث الاجتماعي من جهة ، والفلاح الفقير من جهة ثانية . أما

الفئات الأخرى من الفلاحين سواء المتوسطة أو الكبرى المالكة لوسائل الإنتاج والملكيات الزراعية الكبيرة ، فهي ذات مواقع اجتماعية متميزة . يتحدد عمل المثقف داخل المجتمع القروي في ضرورة اختياره بين خدمة الفلاحين الفقراء أو خدمة كبار الملاكين ، وهو غي كلتا الحالتين يظل موظفا للدولة ، يقول باسكون : " إن المهندس كرجل دولة يظل كذلك حتى بالنسبة للذين تجمعهم معه علاقات داخل دائرة العمل من مرؤوسيه وعمال زراعيين " . المهندس ممثل للدولة حتى وإن كان يشتغل في القطاع الخاص وحتى وإن نسج علاقات إيجابية مع الفلاحين ، فهو يبقى في تمثلاتهم وتصوراتهم " موظف الدولة " وحتى وإن وضع نفسه رهن إشارة صغار الفلاحين ، لأن العلاقة بين هؤلاء وبين الدولة مثقلة بإرث تاريخي وحصيلة سياسية من الصراعات والتوترات .

يتوجه المثقف إلى المجال القروي والمجتمع الفلاحي وهو حامل لكل مواصفات المدينة ومظاهر الوسط الحضري : السيارة ، الهندام ، لغة التخاطب ، خاصة وأن " البرجوازية الحضرية للمدن الكبرى التقليدية تمنح 80./. من المهندسين أغلبهم تكونوا بفرنسا . تخص ملاحظة باسكون السنوات الأولى لاستقلال المغرب ، لأنه فيما بعد التحق العديد من الطلبة المهندسين من أصول قروية بمعهد الزراعة والبيطرة بالرباط . إن التقني كمهندس زراعي أو كباحث اجتماعي هو في " المخيال الاجتماعي " للفلاحين شخص قادم من المدينة كنقيض للقرية ، ممثل

لجهاز المخزن الذي لم تكن علاقته بالبادية علاقة متكافئة ومتضامنة . إنه شخص " غريب " مجسد لعلاقة اللاتكافؤ بين المدينة والبادية ، علاقة " تهريب " المدينة لخيرات القرى ومنتوج البادية . تتراكم طبقات من اللاتواصل ، وتتعدد عوائق التفاعل بين المثقف والفلاح لأن أدوارهما ، وظائفهما وأوضاعهما محكومة بتقابلات ضدية وثنائيات صراعية لم تكن دائما تكاملية ، ثنائيات البادية / المدينة ، القبيلة / المخزن ، الهامش/المركز، الثقافة العالمة / الثقافة الشفوية ...إلخ يرسم باسكون لتاريخ العلاقة بين الدولة والفلاحين من خلال كرونولوجيا تمتد عبر ثلاثة أزمنة معروفة:

- **زمن المخزن** ، حيث كانت علاقته بالفلاحين تتلخص في جباية الضرائب والإقتطاع من فائض الإنتاج الفلاحي ، حيث لا يتدخل إلا إذا هددت سلطته السياسية .
- **زمن الحماية** ، حيث أصبحت دولة الحماية تتدخل تدريجيا في شؤون المجتمع القروي من تنظيم للرعي وتحديد للملكية ، وإدخال للحالة المدنية ، مع جلب أطر خارجية وتقنيات بعيدة عما هو محلي ابتداء من سنة 1945 .
- **زمن الإستقلال** ، حيث عملت الدولة على استكمال ما بدأته دولة الحماية في مجالات الصحة والتعليم ، أو دخول قطاعات لم تتمكن الحماية من اقتحامها كالعدل والدين ، وأصبحت الدولة الوطنية حاضرة بقوة في كل المجالات ، من خلال ترسيخ بنية الإدارة المحلية (القايد) .

عبر هذا التاريخ التراكمي الحامل للثقل السياسي والحمولة الاجتماعية للأزمنة الثلاثة ، سيكون على التقني أن يختار مجال عمله و اتجاه تدخله لأن التقنية ليست محايدة كما يدعي ، بل هي ذات حمولة سياسية تجعل من التقني " رجل الدولة " و " خادما لها " وهو كما يؤكد باسكون " إذا كانت له شجاعة اختيار العمل الى جانب المحرومين ، فعليه أن يظهر كفاءة كبيرة في الخيال والمجهود ليؤكد

أن ترقيعه Bricolage الذي سيتجنب إحداث البرقعات Bavures، يقترب أكر مما هوشمولي دون أن يبلغه في الآن نفسه ."

3) المجتمع المغربي مجتمع مركب Société Composite

انسجاما مع الأطروحة المركزية الواردة في " دراسات قروية " والخاصة بعلاقة الدولة بالفلاحين ودور المثقف داخل مجتمع قروي فلاحي ، يبين باسكون أن بحثه حول " حوز مراكش " لم يتبلور كفكرة في سياق علمي أكاديمي ، بل في سياق مهني انطلاقا من التقارير الخاصة بجماعات معنية بتهيئة حوض من الأحواض المائية للحوز ، حيث تشترك أغلب التقارير في التأكيد على مقاومة التغير، وهو أمرغير مدهش لأن المقاومة لكل ما هو جديد مسألة عالمية . تدافع البادية عن نفسها وتعبر الجماعات المحلية عن مقاومتها لتدخل الدولة عبر تفاوض موحد وصعب حيث تنتقل الجماعات (الأفراد الذين يمثلونها) من رفض لخطة الدولة الى اقتناع تدريجي بقيمتها وجدواها ، بعد أن تقتنع بأن مصلحتها تكمن في الموافقة على مشروع رسمي كالتهيئة المائية للنهر (ص ص 5 – 6) .

بعد عرضه في الفصل الأول " الضرورات الجغرافية " الخاصة بالجوانب الطبيعية من ماء ، جغرافيا وأرض ، ينتقل في الفصل الثاني " الإرث التاريخي " لتحليل التاريخ الإجتماعي والتشكيل القبلي لمنطقة الحوز ، باعتبارها منطقة شكلت رهانا للسلطة الحاكمة منذ عهد المرابطين . يعرض باسكون كما يناقش أهم النظريات التارخية ، السوسيولوجية والأنثروبولوجية التي تناولت التنظيم الإجتماعي القبلي بالمغرب الأقصى وبجهة الحوز بصفة خاصة . تحضر أسماء ابن خلدون ، جيلنر ، جاك بيرك ، ويحضر التوصيف السوسيولوجي لمنطقة الحوز عبر الإشارة لمراحل تارخية همت الأسر الحاكمة من مرابطين ، موحين سعديين وعلويين ، حيث كان للزوايا دور ديني

وسياسي في تنظيم الحركات الاجتماعية الصادرة عن الإطار الاجتماعي القبلي . ركز باسكون أيضا على المرحلة الأخيرة في تاريخ الزوايا حيث كان التوظيف الذكي للمخزن لها دون القضاء عليها لأن " الحد من نفوذ الزوايا يولد فراغا سياسيا - دينيا جد كبير داخل المجال القبلي ، لهذا فالقليل من الملوك من ذهب حدا بعيدا بلغ مستوى القضاء على الزوايا " (ص 257) .

في الفصل الثالث والأخير " الهيمنة الرأسمالية " يعرض باسكون للتاريخ الاجتماعي لمنطقة الحوز في الفترة المعاصرة بداية من القرن التاسع عشر ، واصفا طبيعة الإنتاج الذي كان يعتمد على الطاقة البشرية ، وبشكل محظوظ على الطاقة الحيوانية .أما الطاقة المائية ، فهي تقتصر على مطاحن الدقيق التي يملكها القواد والمخزن والممتدة عبر السواقي الكبيرة للدولة . سيجد المعمرون في ثلاثينيات القرن الماضي صعوبات كثيرة تمثلت في الجهل بالتقنيات الزراعية ، والنقص في الموارد المائية وقلة بيع الملكيات الزراعية . اعترفت تقارير رسمية للسلطات الإدارية الإستعمارية بإغفال المسألة المائية أثناء وضع مشاريع تهم المجال الفلاحي ، فالمعمر القادم إلى مراكش بعد الحرب العالمية الأولى هو شخص مهاجر شجعته المظاهر الطبيعية المرئية من طقس جميل وزراعة سهلة بسقي بسيط واثمنة حبوب مشجعة ويد عاملة رخيصة في العشرينيات . المعمرون في سنة 1931 إدراة الحماية في اجتماع " الغرفة المختلطة بمـراكش" (28دجنبر) لأنها لم تحقق التزاماتها ووزعت عليهم أراض غير صالحة للزراعة (ص ص 489-491) .

ستتدخل السلطة السياسية الاستعمارية للبحث عن موارد مائية تؤمن مصالح و أرباح الملاك الزراعيين الأوروبيين و ذلك بتحسين توزيع الماء و التحكم فيما تقيمه من سدود ، وهكذا سيصبح التفوق للمزارعين الأوربيين على حساب المزارعين المغاربة بعد أربعين سنة من التدخل الاستعماري في وقت كان التكافؤ بينهما في العقد الاول لفرض سلطة الحماية (ص ص 527- 528) . يبين باسكون أنه لتحديث ورأسملة البنيات الزراعية يلزم تمكين الفلاحين المغاربة من الموارد

المائية ، وهو ما يعني نزعها من الاوربيين باعتبارها المصدر الحقيقي لأطماعهم . إن النتيجة الإيجابية للتحديث بالنسبة للفلاحين المغاربة كنتيجة وحيدة هي حصول المغاربة على شغل ، دون أن يخضعوا للتبلتر Prolétarisation لأنهم لم يكونوا يملكون أراض ووسائل إنتاج ، ففقدوها و اضطروا للعمل لدى المعمرين. إن هذه الأملاك كانت في الفترة قبل الاستعمارية في حيازة المخزن و أعيان مدينة مراكش ، لقد اضطر المعمرون في العقد 1920- 1930 الى جلب اليد العاملة الزراعية من مناطق مجاورة للحوز (ص ص 533-538) .

اذا كان مؤلف " حوز مراكش " قد عرض للمكونات الجغرافية ، التاريخية ، الاقتصادية والعقارية للإطار السوسيو مجالي للحوز عامة و للبنيات الزراعية خاصة ، فإن غاية بحثه لم تتمركز في مجال التاريخ ، الجغرافيا او الاقتصاد ، بل هو استثمر هذه المجالات و ما يتعالق معها من معارف لتحديد ما يهمه كسوسيولوجي : البنيات الاجتماعية les Structures Sociales و ذلك باعتبار أن " البنية الزراعية هي كل مركب و أشكال اجتماعية مهيمن عليها ، مقاومة لبعضها البعض كما هي متحالفة فيما بينها ، وهذا ينطبق أيضا على العوامل الاجتماعية . كما أن التنوع يلعب دورا مؤثرا حسب المناطق و الفترات التاريخية " (ص 587) . يتضمن المجتمع المركب أنماط إنتاج وتفكير يتعايش فيها العبودي مع الإقطاعي مع الرأسمالي .الإنسان المغربي في المجتمع المركب – وهذا هو المثال الذي يقدمه باسكون – يستعمل الطاقة الكهربائية بمدينة مراكش ، لكن بالبادية وغير بعيد عن هذه المدينة تنافس الطاقة المائية الطاقة الكهربائية . تهيمن داخل المدينة العلاقات الأجرية – الرأسمالية وخارجها تتحقق الهيمنة لعلاقات " الخماسة " و " الشركة " التي تصبح علاقات عبودية في المناطق النائية حيث يبخس المجهود البشري . أماعلى مستوى البنيات الفكرية و الإيديولوجية فتتعايش منظومات قانونية و رمزية متفاوتة و متباعدة في تاريخة تشكلها ، فالأب الرأسمالي بالمدينة له خادمة بالبيت يعاملها معاملة العبيد في حين أن له ابن يعلن انتمائه " التقدمي " .

كيف تشتغل هذه الأنماط الإنتاجية البطريكية القبلية ، القائدية ، الفيودالية و الرأسمالية في مجتمع مركب كالمجتمع المغربي ؟

جوابا على هذا التساؤل الإشكالي العويص يوضح باسكون أن النمط المهيمن هو النمط الصناعي بحكم الحاجة إلى التقنية في المرحلة الرأسمالية ،إلا أن مؤسسات أخرى ما قبل رأسمالية تظهر مقاومة عنيفة حيث يتم تقديس السلطة ويقع " توزيع السلطة ليس انطلاقا من التقنية ، بل من الولاء و شبكة الزبونية و ملكية الأرض . أما داخل العائلة فيهمين النموذج البطريكي الذي تتحدد به العلاقات الاجتماعية ووضعية المرأة (...) التي تنتج هي أيضا أشكال مقاومة " (ص 591). إن مفهوم " المجتمع المركب " الذي صاغه باسكون في عقد الستينيـــــات(La Nature Composite de la Société Marocaine (« Lamalif »N°17,Dec.1967 و بلوره ضمن إطار نظري شمولي و مركب في أطروحته "حوز مراكش " هو مفهوم يشكل أداة خصبة لتحليل سوسيولوجي عميق لا يجب ان يتوقف عند المونوغرافيا و لا أن يصوغ الفرضيات ، بل عليه التحري الميداني لمعرفة عناصر التغير الاجتماعي ، عوامله و نتائجه التي شملت التركيبة الخاصة بالمجتمع المغربي أو تلك الخاصة بمجتمعات محلية . يقول باسكون معرفا مجتمع الحوز « إنا اضطررنا الى تقديم تعريف موجز لما هو مجتمع الحوز اليوم (السبعينات) سنتوصل الى تركيبة التعقيد التالي : التشكيلة الاجتماعية للحوز الآن هي تشكلية قائدية – مخزنية تقضي على القبلية و تهيمن على البطريكية التي وجدت مكانها في العائلة الصغيرة و الاستغلال الاقصى للنساء و الأطفال ، لكن هذه القائدية هي الاخرى تهمين عليها الرأسمالية العالمية في دائرة الإنتاج والتبادل»(ص591).

يعرف باسكون أن اقتراحه لمفهوم " المجتمع المركب " كناظمة مفاهيمية و نظرية جامعة لعناصر بحثه حول " الحوز " هو اقتراح ليس بسحري ولا يعبد كل الطرق أمام ما يعترض الباحث الاجتماعي من معضلات نظرية وعوائق ميدانية تتطلب في تجاوزها و حلها النقصي الدقيق و تستدعي " الخيال السوسيولوجي " (ميلز Mills) ، لذلك يؤكد في آخر فقرة من كتابه التي تحمل عنوان " تشكرات " :

" لدي انطباع أنني لم أتحدث عن سكان " الحوز " بل تحدثت عبرهم ، من فوق ، من تحت على الجانب . قال جاك بيرك J.Berque أثناء مناقشة الأطروحة " إنها ميتا – أطروحة بالضبط ! C'est une métathése لقد فهمت جيدا الجماعات ، الطرق و الحيل المتبعة كما فهمت سلوكات الأفراد ، وكل هذه الأمور في نظري يصعب الإمساك بها ،إنها حبلى بالكثير من الحلول و الإمكانيات " (ص599) .

بيبليوغرافيا مختارة لأهم إصدارات بول باسكون مصنفة كرونولوجيا

1- Ce que disent 296 jeunes ruraux , Enquête d'opinion pour le compte de l'UNICEF , B.E.S.M n°112-113 , jav , juin 1969

2- La formation de la sociéte marocaine , B.E.S.M n° 120-121-1971

3- La question agraire au Maroc (en collaboration avec Najib Bouderbala et M.Charaibi)B.E.S.M N° 123-124-125 août 1974 , 423 pages .

4- Le Haouz de Marrakech , Histoire sociale et structures agraires..(thése pour le doctorat d'état en sociologie) 2 tomes , Tanger 1977 , 858 pages .

5- Segmentarité et stratification dans la société rurale marocaine. Actes du Durham; B.E.S.M n°138-139 mars 1979.

6- Féoclalisme ou caiclalisme au maroc? Lamalif ; dec 1980

7- Etudes rurales , S.M.E.R , Rabat 1980.

8- La maison d'illigh et l'histoire sociale du tazerwalt , (collectif) , S.M.E.R Rabat 1984.

9- La question hydraulique au maroc (collectif), Rabat , 1984.

10- Les paysans sans terre au maroc (avec M.Ennagi) Ed.Toubkal , Casablanca , 1986.

أهم المقالات المنشورة لبول باسكون

- Les villages miniers de l'office chérifien des phosphates
  (en collaboration avec G.lazavev 450pages .bip , o.c.p) 1959.
- Les structures agraires dans le perimètre des Doukkala
  O.N.I Rabat .Dec 1961.
- la main d'œuvre et l'emploi dans le secteur traditionnel
  B.E.S.M n° 100 janv . mars 1966
- La nature composite de la société marocaine
  Lamalif , n° 8 déc 1967.

- La compétition des éleveurs dans la région d Azrou
  Le maroc agricole ; n°65 mai 1974.
- L'ingénieur entre la logique des choses et la logique des hommes : critique de la sainte raison technique ; Lamalif n°90 ;1977 ; et les temps modernes n°375.1977
- Consiels pratiques pour la préparation des mémoires et des théses , Rabat ; 1981.
- L'érit et le verbal , in lamalif ; n°113 fev .1980 .
- Ce que je pense est faux (sur K.Popper) , Lamalif ;mai 1982.
- Le réglage du texte (dactylo) 1985.